التسامح في الإسلام

أ.د/ محمود حمدي زقزوق(*)

تمهيد:

الإسلام دين عالمي يتجه برسالته إلى البشرية كلها، تلك الرسالة التي تأمر بالعدل وتنهى عن الظلم وترسى دعائم السلام فى الأرض، وتدعو إلى التعايش الإيجابي بين البشر جميعاً فى جو من الإخاء والتسامح بين كل الناس بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم، فالجميع ينحدرون من نفس واحدة(1).

وعالمنا اليوم فى أشد الحاجة إلى التسامح الفعال والتعايش الإيجابي بين الناس أكثر من أي وقت مضى نظراً لأن التقارب بين الثقافات والتفاعل بين الحضارات يزداد يوماً بعد يوم بفضل ثورة المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوجية التى أزالت الحواجز الزمانية والمكانية بين الأمم والشعوب حتى أصبح الجميع يعيشون فى قرية كونية كبيرة.

والإسلام دين يسعى من خلال مبادئه وتعاليمه إلى تربية أتباعه على التسامح إزاء كل الأديان والثقافات، فقد جعل الله الناس جميعاً خلفاء فى الأرض التى نعيش فوقها، وجعلهم شركاء فى المسئولية عنها، ومسئولين عن عمارتها مادياً ومعنوياً – كما يقول القرآن الكريم: ﴿هُوَ

(*) وزير الأوقاف المصري.

(1) كما جاء فى القرآن الكريم: "يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ" [النساء:1].

أنشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦٢]، أي طلب منكم عمارتها وصنع الحضارة فيها، ومن أجل ذلك ميّز الله الإنسان بالعقل وسلّحه بالعلم حتى يكون قادراً على أداء مهمته وتحمل مسئولياته فى هذه الحياة.

ولهذا يوجه القرآن الكريم خطابه إلى العقل الإنساني الذى يعد أجلَّ نعمة أنعم الله بها على الإنسان، ومن هنا فإن على الإنسان أن يستخدم عقله الاستخدام الأمثل، وفى الوقت نفسه يطلب القرآن من الإنسان أن يمارس حريته التى منحها الله له، والتي هي شرط ضروري لتحمل المسئولية، فالله سبحانه لا يرضى لعباده الطاعة الإلهية التى تجعل الإنسان عاجزاً عن العمل الحر المسئول، فعلى الإنسان إذن أن يحرص على حريته، وألا يبددها فيما يعود عليه وعلى الآخرين بالضرر.

ومن شأن الممارسة المسئولة للحرية أن تجعل المرء على وعى بضرورة إتاحة الفرصة أمام الآخرين لممارسة حريتهم أيضاً، لأن لهم نفس الحق الذى يطلبه الإنسان لنفسه. وهذا لا يعنى أن العلاقة الإنسانية بين أفراد البشر هى علاقة موجودات حرة يتنازل كل منهم عن قدر من حريته فى سبيل مجتمع إنساني يحقق الخير للجميع، وهذا يعنى بعبارة أخرى أن هذا المجتمع الإنساني المنشود لن يتحقق على النحو الصحيح إلا إذا ساد التسامح بين أفراده، بمعنى أن يحب كل فرد فيه للآخرين ما يحب لنفسه.

التسامح الإيجابي الشامل :

ولا شك فى أن وعينا بأننا خطّاءون[1] يواكبه فى الوقت ذاته وعيناً بمسئوليتنا التى ترتكز عليها كرامتنا الإنسانية، الأمر الذى يمكننا من السلوك القويم المتسامح حيال الآخرين الذين يشاركوننا فى الإنسانية والذين ينبغي أن يربطنا بهم رباط التضامن الإنساني المشترك، والتسامح – كما ألمحنا – يقوم على الاعتراف بحرية كل إنسان وكرامته، ونحن مطالبون أخلاقياً ودينياً أن نكون متسامحين مع كل البشر بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية والثقافية والدينية والإيديولوجية.

ولا يكتفى الإسلام بتعليم أتباعه هذا التسامح الشامل بوصفه شرطاً من شروط السلام الضروري للمجتمع الإنساني، بل يطلب منهم أيضاً الالتزام بالسلوك العادل الذى لا يقبل الآخر فحسب؛ بل يحترم ثقافته وعقيدته وخصوصياته الحضارية. وخير وصف يمكن أن نطلقه على هذا التسامح أنه تسامح إيجابي وليس تسامحاً حيادياً. وفى هذا يقول القرآن الكريم: ﴿ لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨].

---

[1] فى ذلك إشارة إلى الحديث النبوي: "كل بنى آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون" رواه عن أنس كل من الإمام أحمد فى مسنده والترمذي وابن ماجة والحاكم فى المستدرك. (راجع فيض القدير للمناوي ج٥ ص ١٦ – دار المعرفة بيروت ١٩٧٢م).

ومـــن الملاحــظ فى هذه الآية – وفى آيات أخرى كثيرة – أن القــرآن لم يستخدم أسلوب الأمر بطريق مباشر، وإنما استخدم أسلوب التنبيه والتوجيه الذى يتطلب استخدام العقل الإنساني، ومن عادة القرآن أن يعالج المشكلات بطريقة متدرجة تتفق مع ثقافة كل فرد، والإسلام لا يريد أن يقول للناس كلاماً ليحفظوه ويعلموا به بطريقة آلية، وإنما يريد تربية النفس وتحقيق الذات والعمل المسئول الذي يؤدى عن اقتناع.

ويشتمل النص القرآني الذي أوردناه على ثلاثة أمور أولها: أن الله ســبحانه وتعــالى لــم ينه عن التسامح مع الآخرين، وثانيهما: أن التســامح مع الآخرين الذين لم يعتدوا على المسلمين والتعايش الإيجابي معهم بالبر والقسط هو العدل بعينه، وثالثهما: التأكيد على أن من يسلك هذا السبيل يحظى بحب الله سبحانه وتعالى.

وبهذا الأسلوب المقنع الذي يخلو من الإكراه على فعل شئ ما أو الامتناع عنه تصل الرسالة القرآنية – رسالة التسامح – إلى النفوس فى يســر وسهولة، وتحقق الهدف المطلوب، وهو نشر التسامح بين الناس على أوسع نطاق.

التسامح والتعددية :

ومـــن هنا لا يجوز أن ينظر إلى اختلاف الجماعات البشرية فى أعراقها وألوانها ومعتقداتها ولغاتها على أنها تمثل حائلاً يعوق التقارب والتســـامح والتعايش الإيجابي بين الشعوب، فقد خلق الله الناس مختلفين كمـــا يقول القرآن الكريم :﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ [هــود: ١١٨-١١٩]، ولكن هذا الاختلاف بين الناس فى أجناسهم ولغاتهم

وعقائدهم لا ينبغي أن يكون منطلقاً أو مبرراً للنزاع والشقاق بين الأمم والشعوب؛ بل الأحرى أن يكون هذا الاختلاف والتنوع دافعاً إلى التعارف والتعاون والتآلف بين الناس من أجل تحقيق ما يصبون إليه من تبادل للمنافع، وتعاون على تحصيل المعايش، وإثراء للحياة والنهوض بها؛ ومن هنا يقول القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات:١٣]، والتعارف هو الخطوة الأولى نحو التآلف والتعاون فى جميع المجالات.

وحتى يمكن الوصول إلى هذا الهدف كان لابد من إيجاد وسيلة للتفاهم وتبادل المشاعر والأفكار بين الناس. فكانت اللغة التي يتخاطب بها الناس ويعبرون بها عن أغراضهم ومشاعرهم وأفكارهم. ويُعد التفاهم عن طريق اللغة أسلوباً للتواصل بين البشر وتبادل الأفكار الذي يؤدى إلى تبادل المنافع فيما بينهم.

ولا يجوز أن يؤدى الخلاف فى الرأي أو فى الفكر أو فى الاعتقاد إلى إفساد ما بين الناس من علاقات ، وهذا ما يعبر عنه القول المشهور: "الخلاف فى الرأي لا يفسد للود قضية" ، وكما أعطى لنفسي الحق فى أن يكون لرأيي الخاص ووجهة نظري المستقلة فكذلك ينبغي أن أعطى الحق ذاته للآخر؛ فمن حقه أيضاً أن يكون له رأيه الخاص ووجهة نظره المستقلة؛ بل ومن حقه أن يكون له معتقده المختلف، فكل فرد فى هذا خليفة فى الأرض ليعمرها بالخير، ويملأها بالعلم، وينشر فيها الحق والعدل والأمن والسلام.

ولا جدال فى أن الحوار قد أصبح فى عصرنا الحاضر أكثر إلحاحاً من أى وقت مضى، بل أصبح ضرورة من ضرورات العصر،

ليس فقط على مستوى الأفراد والجماعات؛ وإنما على مستوى العلاقات بين الأمم والشعوب المختلفة، وإذا كانت بعض الدول فى القرن الجديد لا تزال تفضل شريعة الغاب بدلاً من اللجوء إلى الحوار، فإن على المجتمع الدولي أن يصحح الأوضاع، ويعيد مثل هذه الدول الخارجة على القيم الإنسانية والحضارية إلى صوابها حتى تنصاع إلى الأسلوب الأمثل فى التعامل وهو الحوار؛ فليس هناك من سبيل إلى حل المشكلات وتجنب النزاعات إلا من خلال الحوار.

ومن منطلق الأهمية البالغة للتعارف(١) بين الأمم والشعوب والحضارات والأديان على الرغم من الاختلافات فيما بينها - كانت دعوة الإسلام إلى الحوار بين الأديان، وذلك لما للأديان من تأثير عميق فى النفوس. ويعد الإسلام أول دين يوجه هذه الدعوة واضحة صريحة فى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤].

ولم يكتف القرآن بمجرد الدعوة إلى الحوار بين الأديان، بل رسم المنهج الذى ينبغى اتباعه فى مثل هذا الحوار. وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦].

أما الحكم على الآخرين الذين يشاركوننا فى الإنسانية فيجدر بنا أن نتركه لله جل شأنه. وخير لنا بدلاً من ذلك أن نجتهد فى أن نسلك

---

(١) كما جاء فى الآية الكريمة: " وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا" [الحجرات:١٣]

حـــيالهم مسلكاً عادلاً متسامحاً طالما لم يسيئوا إلينا. فالدين لا يحفل إلا بالأعمـــال الـــتى نتحمل نحن مسئوليتها، ولهذا يقول القرآن الكريم فى موضع آخر: ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْـــدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّـــةَ بَيْنَـــنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَـــعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى:١٥].

التسامح الدينى :

ونظـــراً لمـــا للدين من عمق عميق فى النفوس فإن الحوار بين الأديان لا يمكن أن يكتب له النجاح إلا إذا ساد التسامح بين المتحاورين، وحـــل محـــل التعصب المعتاد بين أتباع الديانات المختلفة. وقد حرص الإسلام كل الحرص على تأكيد هذا التسامح بين الأديان بجعله عنصراً جوهرياً من عناصر عقيدة المسلمين.

فالأديـــان الســـماوية جميعها تعد – فى نظر الإسلام – حلقات متصـــلة لرسالة واحدة جاء بها الأنبياء والرسل من عند الله على مدى الـــتاريخ الإنسانى، ومن هنا فإن من أصول الإيمان فى الإسلام الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله وما أنزل عليهم من وحى إلهى، وفى هذا يقول القرآن الكريم: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة:٢٥٨]

ومـــن أجل ذلك يمتاز الموقف الإسلامي فى أى حوار ديني بأنه موقف منفتح على الآخرين، ومتسامح إلى أبعد الحدود، فقد أقر الإسلام منذ البداية التعددية الدينية والثقافية، وصارت هذه التعددية من العلامات المميـــزة فـــى التعاليم الإسلامية. والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة. فقد تأســـس مجـــتمع المدينة المنورة بعد هجرة الرسول إليها على التعددية

الدينـــية والثقافـــية، ومـــارس المسلمون ذلك من بعده عملياً على مدى تاريخهم الطويل.

ويؤكـــد ذلك ما يعرفه التاريخ من أن المسلمين لم يكرهوا أحداً على الدخول فى الإسلام، فالحرية الدينية مكفولة للجميع، وتعد مبدأ من المبادئ الإسلامية الذى أكده القرآن الكريم فى قوله: ﴿لا إِكْـــرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وفى قوله فى موضع آخر: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩].

ومن القواعد الأساسية المعروفة فى الشريعة الإسلامية فى شأن التعامل مع أهل الكتاب القاعدة المعروفة: "لهم ما لنا وعليهم ما علينا"، أى لهم ما لنا من حقوق وعليهم ما علينا من واجبات.

الخاتمــــة

ومما تقدم يتضح لنا بجلاء إلى أى مدى يعتبر التسامح الإيجابي – بوصــفه تسامحاً شاملاً أو تسامحاً دينياً – من العناصر الأساسية فى تعاليم الإسلام، وبالتالي من الأهداف التى ترمى إليها التربية الإسلامية.

ومــن هــنا فــإن التزام المسلمين بذلك وحمايتهم لحقوق أتباع الديانات الأخرى الذين يعيشون فى المجتمعات الإسلامية أمر يدخل فى إطــار الــتزاماتهم الدينــية التــي تقضى بالحفاظ والدفاع عن الحقوق الإنســانية العامة للجميع، وأى تجاوز أو عدوان على هذه الحقوق يعد تجــاوزاً أو عدوانــاً علــى تعاليم الدين، وهو أمر يجب على المسلمين التصدي له بكل الوسائل.

وفــى هــذا الإطار يفهم أيضاً حديث النبى ﷺ: "من رأى منكم مــنكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"(١).

ومن هنا فإنه ليس من التسامح فى شئ الوقوف موقف المتفرج حــيال الظلم والقسوة اللذين يتعرض لهما أى إنسان بصرف النظر عن جنسه أو لونه أو عقيدته.

وفى ختام حديثنا عن التسامح أود أن أشير إلى إحدى المأثورات الثابــتة عن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، والتى تعد نموذجــاً رائعاً على التسامح الإسلامي الإيجابي، فقد كان عمر يتجول

---

(١) رواه كــل من الإمام مسلم والحاكم فى المستدرك وأصحاب السنن الأربعة أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة (راجع فيض القدير للمناوى ج٦ ص١٣٠).

كعادتــه فــى شوارع المدينة المنورة يتفقد أحوال الرعية، فرأى شيخاً طاعــناً فى السن يتسول فى الطريق، فسأل عن أمره وعلم أنه يهودى، فحــزن الخلــيفة لما أصاب هذا الشيخ الهرم مما اضطره إلى التسول، وأمر بأن يّخصص له – ولنظرائه – معاش ثابت من بيت مال المسلمين يتــيح له حــياة كريمة، وهذا الخليفة هو نفسه صاحب العبارة الشهيرة: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً"(١).

ومن هذه الأمثلة – وغيرها كثير – يتجلى بوضوح مدى حرص الإسلام على الدفاع عن حرية الإنسان وكرامته وحقوقه الإنسانية العامة بصــرف الــنظر عن انتماءاته العرقية أو الدينية أو الثقافية، وذلك كله يعــبر تعبيراً لا يقبل التأويل عن التسامح الإسلامي الذى سيظل عنوان على هذا الدين إلى آخر الزمان.

---

(١) راجع على الطنطاوى: أخبار عمر ص ١٨٢ وما بعدها – دمشق ١٩٥٩م.